محاضرات تاريخ الجزائر الاقتصادي

المستوى: سنة أولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث

المحاضرة الأولى: الحرف في الجزائر: خصائصها وأنواعها

اذا كان النشاط الفلاحي يبرز فيه دور ريف المدينة اكثر من مركزها، فان الحرف الصناعية في الفترة الحديثة يبرز دورها وتنظيمها في المدينة اكثر من الريف، وهذا دون اغفال ارتباطها بالريف والمناطق الداخلية، باعتبار أن الفضاء الاخير كان مصدرا لكثير من المواد الاولية للحرف، وسوقا للكثير من منتوجاتها من جهة، اضافة الى أن أهالي المدن الداخلية كانت لهم نشاطات حرفية وتجارية بالمدينة، ويعملون كأجراء في مختلف الحرف داخل المدينة وضواحيها، ولذلك فرغم أن مركز النشاط الحرفي كان في المدينة، الا أنه كان مرتبطا بالفضاءات الاخرى، ويظهر هذا الارتباط في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي في فضاءين أساسيين هما: أولا المدينة وفحوصها، وثانيها المناطق والمدن الداخلية، وقد أخذت مسائل نشاط ومشاكل القطاع الحرفي، وديونه وآثاره الاجتماعية في الفترة المعاصرة النصيب الاوفر في سجلات المحاكم الشرعية.

خصائص الحرف في الجزائر

كانت الحرف في الجزائر قبل الاحتلال من اهتمامات سكان المدن ومن حاجات سكان الريف، واشتملت على عدة قطاعات في النسيج والجلود والصناعات الحديدية والنحاسية وغيرها، وأشهر الصناعات النسيجية نجد الصناعات الحريرية، التي كانت في النصف الاول من القرن السابع عشر مزدهرة ومتطورة بسبب توفر المادة الاولية، ورواج المبادلات التجارية الدولية، وقد لعب العنصر الاندلسي دورا مهما في الصناعات النسيجية والحريرية منها خاصة، وعرف ممارسو هذه الصنعة بالحرارين، وكانت لهم سوقا عرفت باسمهم، يقع بشارع البحر في الجهة البحرية للجامع الاعظم، كما كانت لهم محلات وحوانيت في جهات اخرى من المدينة، واشتهرت أنواع المنتوجات الحريرية داخل البلاد وفي مدن المغرب وحواضر الشرق الاسلامي المتوسطية، كما انتشرت بعض ورش الحرارين في البليدة وشرشال، أما الريفيون فلم يكونوا يعرفون صناعة الحرير بل حتى استعمالاته كانت محدودة خارج المدن والحواضر لغلاء سعره.

عرفت المدن حرفا أخرى مثل الدباغة والحياكة والخياطة، وقد تعرضت كلها لنكبة الاحتلال؛ لقد ترك لنا حمدان خوجة صورة حية عن عملية التدمير المنظمة

التي اتبعتها سلطات الاحتلال في السنوات الاولى لتهيئة "ساحة الحكومة"، فدمرت خمسة أسواق عمومية هي سوق القيصرية لنسخ الكتب وبيعها، وسوق القابس وسوق الحدادة وسوق القماش ومصنع الحرير.

أما الحرف الخدماتية المتنوعة والعديدة، فتأتي في المرتبة الاولى حرفة الحفافة ثم "القهواجية"، وكذلك الحواتين (صيد السمك وبيعه) والخضارين وغيرها، وهي حرف ضرورية لحاجات سكان المدينة وزوارها، وسنرى لاحقا ان أغلب انواع الحرف التي بقيت في نهاية القرن التاسع عشر هي من النوع الاخير.

أما اذا عدنا للفضاء الثاني، الذي ضم الحرف الريفية بالاوطان وقبائل السلسلة التلية، فقد تنوعت هي الاخرى ولكنها ارتبطت بطبيعة المادة الاولية المتوفرة بالضواحي والريف، وتميّزت بمحدودية الانتاج ونوعيته، وبمساهمة المرأة فيه بقوة، خاصة في الصناعات النسيجية والغذائية، ووجه الانتاج الحرفي للاستهلاك المحلي أساسا، وللتبادل بسلع اخرى مع سكان الجنوب والمدينة بدرجة ثانية، في الاسواق المحلية الموجودة بالاوطان والحواضر الاخرى.

وتعتبر الصناعات الخشبية أهم حرف الريف، وتعتمد على حطب ونباتات المناطق الداخلية، وتمثلت في صناعة أثاث البيوت والاواني والسلال؛ كما نجد الصناعات النسيجية، وأتقنت المرأة في الأوطان وقرى وخيم الهضاب العليا صناعة البرانس والقندورة وغطاء الرأس ونسج الصوف، والصناعات الغذائية كانت موجودة في كل البلاد، وتمثلت خاصة في صناعة الطحين والسكر والملح والزيت والصابون والخليع –اللحم المجفف والمملح) وغيرها، مما يشكل في العادة "عولة " المجتمع في الريف والمدينة.

تميّزت الحرف الريفية كونها ذات طابع حرفي أسري ومتنوع، تعتمد على المادة الاولية المحلية، وتتميز بعضها بنوعية جيدة لوجود الحرفيين المهرة، وفي قبائل الاطلس بقيت الحرف القديمة لحاجة الاقتصاد المحلي لها، فكانت كل عائلة تسعى لانتاج حاجاتها اليومية بوسائلها في مختلف الصناعات، ونشير في الاخير الى ان غياب البنية التنظيمية لحرف الريف ومحدودية الاحتكاك بالمدينة حدد دورها اقتصاديا واجتماعيا داخل البلاد وخارجها.

أهم الحرف

حرفة النسيج: تعتبر من أهم الحرف بالمدن والأرياف لاشتمالها على عدة حرف متفرعة عنها، لصناعة الملبوس والمفروش والأفرشة والأغطية وغيرها، وكانت ببعض المدن شبه مناطق صناعية ففي مدينة مازونة كان بها 1400 ءالة نسج، وضمت مدينة ندرومة حوالي 25 محل نسيج وهي مدن صغيرة بالمقارنة مع تلمسان ومدينة الجزائر؛ ولقد اشتهرت زرابي مدن غرداية والأوراس والقلعة وغيرها، تمارس في البيوت من النساء بأدوات تقليدية موروثة بشكل يومي، وترتبط بحرفة النسيج حرفة التطريز، ويمارسها الرجال والنساء في

البيوت والورش، ومادتها الأساسية خيوط الذهب والحرير والفضة على الأقمشة الحريرية والقطنية والجلود، وكذلك تتصل بحرفة النسيج ورش الدباغة لتلوين الجلود والأقمشة، وكانت بعض المدن معروفة بالدبغ كمازونة وأخرى بالتصنيع كتلمسان، ومعامل الدبغ عادة تكون خارج مركز المدينة.

صناعة الأواني الخشبية والفخارية: نجحت هذه الحرف نتيجة توفر المادة الأولية محليا، وكذلك لمساهمة الريف فيها، ودلّت الدراسات على البصمة التي أضافها الأندلسيون في تطور هذه الصناعة في المدن، اشتهرت في انتاج هذه الادوات في الغرب مدينتي تلمسان وندرومة، وفي الوسط بلاد القبائل، وتلحق بهذه الصناعة صناعة الحصائر وبعض الأثاث والأواني من نباتات و"دوم" وسعف النخيل وكل منطقة تنتج مما توفر لديها.

دار الصناعة بمدينة الجزائر: وهي مؤسسة تابعة للدولة أقامها خير الدين باشا، مكلفة بصناعة الأسلحة والبارود والمدافع وكذلك ضرب السكة، ومعادن الحديد والنحاس والرصاص المادة الأولية لذلك كانت متوفرة ببلاد القبائل وبالأطلس المتيجي؛ ولكن الأسلحة المصنوعة كانت أقل نوعية من نظيرتها القادمة من أروبا ذات التقنية العالية، ولذلك كثيرا ما كانت تستعين هذه الصناعات بالأوروبيين.

اضافة الى الصناعات الغذائية وورش صناعة مواد البناء كالجير والقرميد والجبس ولوح الجر(الأردواز)، وكذلك الصناعات الجلدية وحرف المجوهرات التي مورست في المدن والأرياف، وتعرضت لها المصادر الأروبية والدراسات الأكاديمية.